كنوز الأجداد

- ١٣ -

الحريري

ابو محمد القاسم بن علي البصري

٥١٥ أو ٥١٦

الحريري نسبة لصنع الحرير أو بيعه ، نشأ الحريري عليها ثم تركها وانقطع للعلم والادب ، فبرز في النحو واللغة وفي النثر والشعر ، ولقب بالشيخ الرئيس ، وتولى في بلده المشان على مقربة من البصرة منصب صاحب الخبر (الاستخبارات) واشتهر بالغنى ، ويحكى أنه كان يملك ثمانية عشر الف نخلة وكان يغشى منزله في البصرة عظماء القوم وفضلاؤهم .

هذا ما عرف من حياته المادية ، وحياته الأدبية عظيمة وعظمتها بتأليف المقامات التي كانت كما قال فيها تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، الى ما وشحها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعه فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية .

وصفه ابن خلكان بانه احد أئمة عصره ، ورزق بالمقامات الحظوة التامة ، لما اشتملت عليه من كلام العرب من لغاتها وأمثالها ، ورموز أسرار كلامها ، قال ومن عرفها حق معرفتها ، استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده ابو القاسم عبد الله قال : كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبي جالساً في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح الكلام ، حسن العبارة ، فسأله الجماعة من أين الشيخ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد ، فعمل ابي المقامة المعروفة بالحرامية وهي الثامنة والأربعون وعزاها الى ابي زيد المذكور واشتهرت فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله ، قيل انه القاشاني وقيل ابن صدقة فاعجبته واشار على والدي أن يضم اليها غيرها فاتمها خمسين مقامة ، والى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : فأشار من اشارته حكم ، وطاعته غنم ، الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع .

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام فانما عنى به نفسه ، وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام . فالحارث الكاسب والهمام الكثير الاهتمام . وما من شخص الا وهو حارث وهمام ، لأن كل واحد كاسب يهتم بامور .

قال الحريري فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم - يوم رؤية ابي زيد السروجي - فضلاء البصرة فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل فحكى كل واحد منهم انه سمع من هذا السائل في مسجده معنى آخر فضلاً عما سمعت وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله فتعجبوا منه فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات عملها اربعين مقامة أولاً ثم حملها من البصرة الى بغداد وادعاها فلم يصدقه في ذلك جماعة من الأدباء وقالوا انها ليست من تصنيفه بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه اليه فادعاها ، فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته فقال : أنا رجل منشئ - فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عينها ، فانفرد في ناحية من الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث زمناً كثيراً فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك . فقام وهو خجلان ، فلما رجع الى بلده عمل عشر مقامات أخر وسيرهن واعتذر من عيه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والغالب ان وظيفته الرسمية شهرت اسمه في البصرة وبغداد وهو لا يعدم حيلة لبلوغ الشهرة . وكان في حياته يباهي بانه أمر بنسخ سبعمائة نسخة من مقاماته وتعاورها الشراح بالشرح شأنهم في كل كتاب نفيس . وترجمت في عهدنا الى عدة لغات ومنها الألمانية والانكليزية وعني بدراستها كثير من المستعربين من علماء المشرقيات معجبين بها وبصاحبها .

فتح بديع الزمان الطريق أمام الحريري بما أنشأ من مقاماته ، والبديع أقرب الى عدم التكلف وتصنيع الحريري ظاهر ، الا أنه مقبول . ومقاماته كلها متشابهة وموضوعاتها ليست مما يأخذ بالألباب . لا تشبه القصة التي وضع الافرنج طريقتها ولا تشبه طريقة الأخبار على ما نرى مثالاً منها في كتب طيفور والصولي والقاضي التنوخي وأبي حيان ، هي من نمط يكاد يكون جديداً او غير تلك الأنماط المتعارفة ، والمحور الذي تدور عليه التفنن في ايراد الألفاظ وصياغتها على الأسلوب الذي عرف في عصر الحريري وهو أرقى أسلوب في نظر الأدباء يومئذ .

طريقة المقامات بعيدة عن التوسع في الخيال والتفنن بما ترتاح اليه نفس القارئ لأن طالب المقامات لا يبغي منها الا اللغة أولاً وفي سبيل التقاط دررها يغتفر هذا التكلف ، ولو خلت المقامات من هذا التحبير ما رزق بها صاحبها هذه الحظوة ، وما تناقل طلاب الأدب كلامه خلفاً عن سلف ، وما تنافس في تفهم فصاحته من يقره على طريقته ومن لا يقره .

فالمقامات ينظر فيها الأدباء أولاً الى النكات الأدبية واللغوية وفيها من الشعر المستملح قدر غير يسير وربما كان النقد الى نثره أكثر من نقد شعره لأن الشعر تستر عيوبه بقوافيه وأوزانه وليس كذلك النثر .

فمن تعجله التكلف وقد يقع له في أول المقامة قوله : « ظعنت الى دمياط عام هياط ومياط » . « أزمعت الشخوص الى برقعيد وقد شمت برق عيد »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« آنست من قلبي القساوة حين حلات ساوة » « يممت ميافارقين مع رفقة موافقين » « عاشرت بقطيعة الربيع في ابان الربيع » « حلات سوق الأهواز لابساً حلة الاعواز » « الجأني حكم دهر قاسط الى ان انتجع واسط » « اصعدت الى صعدة وأنا ذو شطاط يحكي الصعدة واشتداد يبدر بنات صعدة » « فطوحت الى مرو ولا غرو » « ازمعت التبريز من تبريز حين نبت بالذليل والعزيز وخلت من المجير والمجيز » « نزع بي الى حلب شوق غلب وطلب يا له من طلب » الخ .

ويقال على الجملة ان اسلوب المقامات أسلوب خاص بدأه البديع وكمل بالحريري والزمخشري نضج معهما واحترق بعدهما . هو أسلوب لا يصلح للرسائل ولا للخطب ولا للتأليف ، هو أسلوب لهذا النوع من الفكاهة والحكاية استعذبه أهل عصور السجع ولذ لهم كثيراً فما حاسبوا صاحبه ان كان كلامه منطوياً على المعاني والخيالات ، وبقيت للمقامات روعتها ما دام السجع رائجاً فلما كسدت سوقه ، وكانت قائمة منذ القرن الثالث الى القرن الثالث عشر اي مدة الف سنة ، زهد رجال الأدب في هذا الضرب من الكلام الذي حرم الانسجام وراحوا ينظرون في الكتب المسجوعة نظرهم الى أثر تاريخي غريب يقدرون نسجه ولا يتكلفون احتذاء مثاله .

وملاك الأمر في السجع كما قال ابن الأثير في المثل السائر ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها فان كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه لأن التطويل انما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها واذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فانك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والأقل منه على ما أشرت اليه . ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بها واكبابهم عليها فوجدت الأكثر من السجع فيها على الأسلوب الذي أنكرته. هذا ما قاله ابن الأثير صاحب الباب العجيب بكلامه وسجعه ماخلا من هذه المآخذ، وسجع الحريري انما كان نمطاً خاصاً بالمقامات وهاكم نموذجاً من نثره وبديع شعره في المقامة الدينارية :

روى الحارث بن همام قال : نظمني واخداناً لي ناد ، لم يخب فيه مناد ، ولا كبا قدح زناد ، ولا ذكت نار عناد ، فبينا نحن نتجاذب فيه أطراف الأناشيد ، ونتوارد طرف الأسانيد ، اذ وقف بنا شخص عليه سمل ، وفي مشيته قزل ، فقال : يا أخاير الذخائر ، وبشائر العشائر ، عموا صباحا ، وانعموا اصطباحا ، وانظروا الى من كان ذا نديّ ونَدى ، وجدة وجدى ، وعقار وقرى ، ومقار وقِرى ، فما زال به قطوب الخطوب ، وحروب الكروب ، وشرر شر الحسود ، وانتياب النوب السود ، حتى صفرت الراحة ، وقرعت الساحة ، وغار المنبع ، ونبا المربع ، وأقوى المجمع ، وأقض المضجع ، واستحالت الحال ، وأعول العيال ، وخلت المرابط ، ورحم الغابط ، وأودى الناطق والصامت ، ورثى لنا الحاسد والشامت ، وآل بنا الدهر الموقع ، والفقر المدقع ، الى ان احتذينا الوجى ، واغتذينا الشجى ، واستبطنا البلوى ، وطوينا الأحشاء على الطوى ، واكتحلنا السهاد ، واستوطنا الوهاد ، واستوطأنا القتاد ، وتناسينا الاقتداد ، واستطبنا الحين المجتاح ، واستبطأنا اليوم المتاح ، فهل من حرّ آس ، او سمح مواس ، فو الذي استخرجني من قيلة ، لقد أمسيت أخا عيلة ، لا أملك بيت ليلة .

قال الحارث بن همام فأويت لمفاقره ، ولويت الى استنباط فقره ، فأبرزت دينارا وقلت له اختيارا ، ان مدحته نظما فهو لك حتما ، فانبرى ينشد في الحال ، من غير انتحال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أكرم به أصفر راقت صفرته جوّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته قد أودعت سر الغنى أسرّته
وقارنت نجح المساعي خطرته وحببت الى الأنام غرّته
كأنما من القلوب نقرته به يصول من حوته صرته
وان تغانت أو توانت عترته يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغناته ونصرته كم آمر به استنبت امرته
ومترف لولاه دامت حسرته وجيش هم هزمته كرته
وبدر ثم أنزلته بدرته ومستشيط تتلظى جمرته
أسرّ نجواه فلانت شرته وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه حتى صفت مسرته وحق مولى أبدعته فطرته
لولا التقى لقلت جلت قدرته

ثم بسط يده ، بعد ما أنشده ، وقال : انجز حرّ ما وعد ، وسحّ خال اذ رعد ، فنبذت الدينار اليه ، وقلت له خذه غير مأسوف عليه ، فوضعه في فيه ، وقال : بارك الله فيه ، ثم شمر للانثناء ، بعد توفيه الثناء ، فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام ، سهلت عليّ ائتناف اغترام ، فجردت ديناراً آخر وقلت : هل لك في أن تذمه ، ثم تضمه ، فأنشد مرتجلا وشدا عجلا :

تبّاً له من خادع مماذق أصفر ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الحقائق يدعو الى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق ولا شكا المطول مطل العائق
ولا استُفيد من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
ان ليس يغني عنك في المضايق الا اذا فرّ فوار الآبق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واهاً لمن يقذفه من حالق ومن اذا ناجاه نجوى الوامق
قال له قول المحق الصادق لا رأي في وصلك لي ففارق

فقلت له : ما أغزر وبلك ، فقال والشرط املك ، فنفحته بالدينار الثاني ، وقلت له عوذهما بالمثاني ، فألقاه في فمه ، وقرنه بتوأمه ، وانكفأ يحمد مفداه ، ويمدح النادي ونداه .

قال الحارث بن همام : فناجاني قلبي بانه ابو زيد ، وان تعارجه لكيد . فاستعدته وقلت له قد عرفت بوشيك ، فاستقم في مشيك . فقال : ان كنت ابن همام فحييت باكرام ، وحييت بين كرام ، فقلت : أنا الحارث ، فكيف حالك والحوادث ، فقال : أتقلب في الحالين بؤس ورخاء وأتقلب مع الريحين زعزع ورخاء ، فقلت كيف ادعيت القزل ، وما مثلك من هزل ، فاستبشر بشره الذي كان تجلى ، ثم أنشد حين ولى :

تعارجت لا رغبة في العرج ولكن لأقرع باب الفرج
وألقي حبلي على غاربي وأسلك مسلك من قد مرج
فان لامني القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج

ومن شعره الذي خلا من التكلف قوله :

إني امرؤ أبدع بي بعد الوجى والتعب
وشقتي شاسعة يقصر عنها خببي
وما معي خردلة مطبوعة من ذهب
فخيلتي منسدة وحيرتي تلعب بي
ان ارتحلت راجلاً خفت دواعي العطب
وان تخلفت عن الر فقة ضاق مذهبي
فزفرتي في صعد وعبرتي في صبب
وأنتم متسعج الـ راجي ومرمى الطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لما كم منهلة ولا انهلال السحب
وجاركم في حرم ووفركم في حرب
ما لاذ مرتاع بكم فخاف ناب النوب
ولا استدر أمل حباءكم فما حبي
فانعطفوا في مقتي وأحسنوا منقلبي
فلو بلوتم عيشتي في مطعمي ومشربي
لساءكم ضري الذي أسلمني للكرب
ولو خبرتم حسبي ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة في أن دائي أدبي
فليت أني لم أكن أرضعت ثدي الأدب
فقد دهاني شؤمه وعقني فيه أبي

وليس أجمل من هذا في الوصول الى الغرض الذي يتطلبه ابو زيد السروجي ممن قصد لهم ليقمش من مالهم . ومثال آخر :

اذا ما حويت جنى نخلة فلا تقربنها الى قابل
واما سقطت على بيدر فحوصل من السنبل الحاصل
ولا تلبثن اذا ما لقط ت فتنشب في كفة الحابل
ولا توغلن اذا ما سبح ت فان السلامة في الساحل
وخاطب بهات وجاوب بسوف وبع آجلاً منك بالعاجل
ولا تكثرنّ على صاحب فما ملّ قط سوى الواصل

نموذجات لا تخلو من نكتة وخفة روح . ومن شعره في الحكمة :

لا تقعدن على ضر ومسغبة لكي يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض معطلة من النبات كأرض حفها الشجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فعدِّ عما تشير الأغبياء به فأي فضل لعود ماله ثمر
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به الى الجناب الذي يهمي به المطر
واستنزل الرِّيَّ من دَرِّ السحاب به بُلِّت يداك به فليهنك الظفر

ومن الحكم قوله :

لا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون اليه

ومن شعره :

احمد بحلمك ما يذكيه ذو سعة من نار غيظك واصفح ان جنى جاني
فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به والأخذ بالعفو احلى ما جنى جاني

وبقدر ما تحمل المقامات من ألفاظ والغاز وأحاجٍ يحمل كتابه درة الغواص في أوهام الخواص من تحقيقات لغوية ونقد تراكيب سرت على الألسن والأقلام في عهده وهذا أيضاً نموذج من أسلوبه فيه : « ... ومثله في اختلاف الرواية قول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني

فروى أكثرهم لفظة الاسراف بالسين المغفلة وبعضهم بالشين المعجمة ليكون معناها التطلع الى الشيء والاستشراف له وهو اختيار المرتضى ابي القاسم الموسوي رحمه الله . ولهذا البيت حكاية تحث على استشعار اليقين واعلاق الأمل بالخالق دون المخلوقين فجنحته بها تحلية لعاطله ونبهة على صدق قائله وهي ما رويته من عدة طرق ان عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنّيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنيني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأراك قد جئت تضرب من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال له : لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ واذكرت ما انسانيه الدّهر . وخرج من فوره الى راحلته فركبها وسار راجعاً نحو الحجاز . فمكث هشام يومه غافلاً عنه فلما كان في الليل تعار على فراشه فذكره وقال في نفسه : رجل من قريش قال حكمة ووفد اليَّ فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع هذا شاعر لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه فأُخبر بانصرافه فقال : لا جرم ليعلمن ان الرزق سيأتيه ثم دعا بمولى له وأعطاه الفي دينار وقال له : الحق بهذه ابن أذينة فأعطه اياها فسار اليه فلم يدركه الا وقد دخل بيته فقرع الباب عليه فخرج فأعطاه المال . فقال : أبلغ امير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولي سمعت فأكديت ورجعت الى بيتي فأتاني فيه الرزق .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net